في مرجعية التفسير الموضوعي

الدكتور حسن مسعود الطوير

جامعة غريان–ليبيا

لقد عكف علماء المسلمين على القرآن حفظاً ودراسة تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ ص29.

ولقد اختلفت طرق هذا التدبر، وتعددت روافده، ولكن الهدف هو الوصول إلي بيان ما احتواه الكتاب العزيز من عناصر الإعجاز، ووجوه الفصاحة والبلاغة، وما اشتمل عليه من أحكام وتوجيهات.

وعلى الرغم من أن القرآن نزل منجمّاً على مدار ثلاث وعشرين سنة بحسب الأسباب المقتضية لذلك، فإن المدقق في ترابط الآيات في سورها، وترابط السور في المصحف، يجد سلسلة متماسكة الحلقات، وموصولة المعاني والإشارات، لا تنبو كلمة عن أخرى، ولا تنفر آية عن سابقتها أو لاحقتها، بل جاء متماسكاً روعة في الإحكام، ودقة في التناسب والالتحام، وقد صوّر أبو حيان الأندلسي ذلك في تفسيره للآيات التي تتحدث عن موقف الشريعة من السحر فقال: (فجمعت هذه الآيات بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والإنذار والتبشير، وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء، وإخبار بمغيب بعد مغيب، متناسقة تناسق الآلي في عقودها، متضحة اتضاح الدراري في مطالع سعودها)[1].

ويمكن القول إن من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن ذلك التناسب بين الآيات والسور، وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، مرتبطة المباني، متسقة

---

1 – البحر المحيط– بيروت – دار الفكر– طـ ثانية (1983/1403) ـ336/1

المعاني، يقول السيوطي في ذلك: " فكما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته"[1].

ويصور محمد عبد الله دراز هذه الوحدة المعنوية بقوله: (فلو أنك أقبلت على أية سورة في التنزيل لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى ؟ ولسوف يحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوماً)[2].

وتأكيداً على هذه الوحدة المعنوية، والترابط الوثيق بين آيات القرآن في السورة الواحدة، أجمع المسلمون على أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي نقل بالتواتر على هذه الصورة التي عليها المصحف الآن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتزل عليه القرآن، فيشير على كتبة الوحي بأن يضعوا الآية أو الآيات الجديدة في المكان الذي يحدده لهم وفي السورة المعنية، وقدْ تكونالآية مدنية فتوضع بين مكيّات أو العكس 3.

وإلى ذلك أشار الزركشي بقوله: " إن ترتيب الآيات في السورة لم يكن بحسب نزولها، وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنتين، وتكون في ترتيب السورة قبلها"[4].

كما نقل السيوطي عن مكي بن أبي طالب ت 437 ه قوله: - " ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم"[5].

---

1 - معترك الأقران في إعجاز القرآن- بيروت دار الكتب العلمية (1988/1408) _43/1.

2 - النبأ العظيم، الكويت- دار القلم _ ط - ثانية _1970م ص 155.

3 - لطائف الإشارات _ القسطلاني _ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية _ مصر _26/1.

4 - البرهان في علوم القرآن _ المكتبة العصرية _ صيدا، بيروت_(1972/1391)_256/1.

5 - الإتقان _ مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني _ القاهرة _(1967/1387)_175/1.

ولعل من أقوى الأدلة على أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي وليس من اجتهاد الصحابة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بعرض ما تنزل عليه من القرآن على جبريل في كل شهر رمضان من كل سنة، وأنه في العام الأخير عارضه بالقرآن مرتين، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: "كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض فيه"[1].

ثم إن الصحابة كانوا يحفظون القرآن على عهد رسول الله ويقرؤونه كاملاً، فقد روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: " جمعت القرآن فقرأته في ليلة، فقال صلى الله عليه وسلم: أخشى أن يطول عليك الزمان وأن تمل، فا قرأه في شهر " فقلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي، فقال: فا قرأه في عشر، فقلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي، فقال: فقرأه في سبع فقلت دعني أستمتع من قوتي وشبابي فأبى"[2]

فهذه الآثار وغيرها تدل على أن القرآن وإن لم يُرتب في سطور في حياة النبي صلى الله عليه و يسلم، فإنه كان محفوظاً في الصدور قبل وفاته.

وهكذا استمر المفسرون وعلماء البلاغة يوضّحون المراد من كلام الله تعالى حسب ترتيب الآيات في سورها، وترتيب السور في المصحف الشريف قروناً متعددة.

وقد حاول بعض المستشرقين التسلل من أسباب النزول لإفساد نظم الآيات القرآنية على حسب ترتيبها في المصحف، مدعين أن الأولى ترتيب الآيات على حسب أسباب النزول، وهم يعلمون أن الآيات ذات الأسباب محدودة.

---

1 – فتح الباري شرح صحيح البخاري _ابن حجر العسقلاني _المطبعة السلفية _42/1.

2 – سنن ابن ماجة _دار إحياء التراث العربي_بيروت _حديث رقم 1346.

وفي منتصف القرن التاسع عشر اضطلع بعض المستشرقين بهذه المهمة وتوصلوا بفضل (**نولدكه**) و(**شفالي**) لا إلى إعادة ترتيب النصوص القرآنية تاريخياً، بل إعادة ترتيب السور ترتيباً يقوم في عمومه على ما لحق دعوة مؤسس الإسلام[1].

وكانت أول محاولة جادة لترتيب سور القرآن زمنياً هي التي قام بها (**نولدكه**) في كتابه " تاريخ القرآن" وهو عمل قائم على النقد الداخلي، وموجه أولاً إلى الحديث والكتب التاريخية كسيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري وتاريخ اليعقوبي[2].

ويوضح عبد الرحمن بدوي المبررات التي استند عليها (**نولدكه**) في إعادة ترتيب الآيات حسب أسباب النزول، فيقول: "والفترة الثانية الكبيرة هي العهد المدني..... ولهذا تزخر السور بالتشريع والقوانين الصادرة باسم الله، و تحاشى صياغة هذه القوانين كل المحسنات البلاغية، وأصبح التاريخ الحقيقي للأمة الإسلامية خلال إقامة الرسول بالمدينة، وليس كثير من الآيات المنزلة في هذه الفترة الزمنية ؛ ولذلك أصبح من الأكثر سهولة ترتيب الآيات حسب النزول"[3].

وقد أبرز (**بلاشير**) الفشل الذي مُني به (**نولدكه**) ورفاقه من العلماء الألمان في إعادة ترتيب النصوص القرآنية ترتيباً دقيقاً وبموضوعية تامة ثم بين أنهم سلكوا مسلكاً جديداً، وحاولوا معالجة الموضوع بمنهج مغاير زاعماً أنهم "نجحوا في إعادة جميع هذه النصوص وفقاً لمراحل متعاقبة حدودها" بحسب الأسلوب من جهة، وبحسب الموضوعات السياسية والدينية من جهة أخرى[4].

---

1. المستشرقون والقرآن ـ إبراهيم عوض ـ دار القاهرة ـ (1423/2003) ص 164.
2. دفاع عن القرآن ـ عبد الرحمن بدوي ـ الدار العالمية للكتب والنشر ـ ص 119.
3. المصدر نفسه ـ ص 119
4. القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره ـ ترجمة: رضا سعادة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974م

ويشيد (**بلاشير**) بجهود (**نولدكه**)، ويرى أن هذا العمل يعين القارئ على الاستمتاع والاستيعاب للنصوص القرآنية، حيث يقول: "وتدل التجربة فيما يبدو أن التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه (**نولدكه**)، وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة"[1].

ويثني (**بلاشير**) على مدرسة (**نولدكه**) التي أنتجت هذه الفكرة فيقول: "إن إعادة ترتيب السور الذي اقترحه (**نولدكه**) ومدرسته ينال هنا كامل أهميته، إنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة، ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول... ويؤدي، إلى تقييم هذه النصوص في ضوء أكثر طرافة وعذوبة"[2].

فهو يقيم هذه الدعوى على أساس ما تلقيه من طرافة وعذوبة على النصوص القرآنية ؛ لتلبي رغبة القارئ الغربي كي يفهم ويستمتع، ولا غرابة في ذلك لأن معظم المستشرقين ينون مواقفهم من القرآن وعلومه على اعتقاد فاسد يقضي بأن القرآن ظاهرة بشرية متأثرة بالعوامل الخارجية وأهمها التعاليم اليهودية والمسيحية.

ويطعن (**بلاشير**) في ترتيب المصحف، فيقول: "وعلينا في المقدمة أن نكرر القول بأن المصحف في حالته القانونية الحاضرة لا يسمح مطلقاً بمتابعة رسالة محمد في توسعها"[3].

ويؤكد تمسكه بالمنهج الذي رسمته مدرسة (**نولدكه**) قبله، فيقول: "إنه لجدير أن نعثر على الركيزة التاريخية ومجموعة المناسبات المسببة، وسلسلة وقائع السيرة التي قدمت الإطار لدعوة محمد"[4].

1- نفسه ـ ص44.

2 - نفسه ـ ص43.

3 - نفسه ـ ص43.

4 - نفسه ـ ص43

فهو يزعم أن القرآن على هيئته الحالية لا يلتزم بالسرد التاريخي للأحداث، موجهاً نقده لهذا المنهج في كتابة المصحف لأنه حسب زعمه قد أهمل التصنيف التاريخي.

وهذه الفكرة استولت على ذهن (**بلاشير**) فبنى ترجمته الفرنسية للقرآن على أسباب النزول، وافتعل رأيا مفاده أن هناك انتظاماً بين الآيات بحسب أسباب النزول، ومراده الطعن في بلاغة القرآن، وفتح باب الاشتباه في سلامة النص القرآني.

ويحاول (**بلاشير**) أن يجد المبرر المنطقي العلمي لهذه الدعوة الخطيرة فيزعم أن "القرآن بوضعه الحالي يمثل رسالة محمد مقلوبة، فالسور التي يبتدئ بها لكونها هي الأطول مكونة في الأغلب من آيات نزلت في المدينة، وعلى العكس ترجع سور المؤخرة في الأغلب (وهي السور الأقصر) إلى بداية الدعوة"[1].

فهو يعتمد في هذا النقد على أن السور الطويلة موافقة للعهد المدني، والسور القصيرة والمتوسطة هي نصوص العهد المكي، وهي تأتي في نهاية المصحف، ثم يزعم بأننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس.

وكعادة المستشرقين فإن (**بلاشير**) ينظر إلى القرآن وكأنه كتاب من الكتب البشرية خالف بتنظيمه غير المعهود الترتيب التاريخي للنصوص، ويعزو ذلك إلى النقص أو الغلط الذي أوقعه سيدنا عثمان في القرآن، وهو يجاري في تأليفه له عادات الساميين وفقهاء اللغة العراقيين، الذي يضعون القصائد الشعرية الطويلة في مقدمة دواوينهم.

ويتمادى (**بلاشير**) في هذا الطعن المغرض في ترتيب الآيات والسور حتى يصفه بالتنافر والاضطراب، ويضرب مثالاً بسورة البقرة فيقول: " إذا رحنا نحصي ما تناولته من موضوعات تنتقل فجأة من توجيهات للمؤمنين إلى حجاج ضد اليهود، لتصل إلى أحكام تتعلق بالأطعمة المحرمة فالقصاص فالشهادة فالزواج فالطلاق"[2].

---

1 - المستشرقون والقرآن – ص 164.

2 - نفسه – ص 179.

ثم يستفهم منكراً ذلك بقوله: "ما السبب في ذلك؟ أهو نص وضع في غير مكانه؟ ثم يدعي أن هناك فروضاً كثيرة محتملة؟ لكن يبقى الانطباع بوجود هذا التنافر العجيب"[1].

وهو في عبثه هذا يهدف إلى إطفاء هالة القداسة المحيطة بالنص القرآني.

وهذا التعسف لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى ذروته حين قسّم السور إلى أجزاء حسب تواريخ مختلفة دون الاستناد على أي أسباب أو معلومات تاريخية ثابتة، وأصبح عدد السور عنده (116) سورة بدلاً من (114) كما هو معلوم لدى العالم الإسلامي والمستشرقين[2].

ومن المستشرقين الذين خاضوا في هذا الموضوع (**ريتشاردبل**) حيث ناقشه في الفصل السادس من كتابه "مقدمة في القرآن" تحت عنوان (الترتيب التاريخي للقرآن)، لكنه بعد أن استعرض محاولات (**نولدكه**) (**ووليام موير**) (**وجريم**) (**وريجيس بلاشير**) اعترف أنه من الممكن الشك في إمكانية ترتيب كامل للقرآن حسب النزول[3]. ويتصدى الباحث إبراهيم عوض لهذه الصيحات الاستشراقية الحاقدة على المسلمين وكتابهم المقدس، ويرى أن هذا الاهتمام شاذ، وأن الأمر ليس بهذه الصعوبة التي يحاول المستشرقون الإيهام بها، فإن في علوم القرآن ما يسمى بعلم أسباب النزول، وهو ما يؤدي المهمة المطلوبة لمن يريدها، يقول: "وليس يعقل أن يجعل الله سبحانه من قرآنه وثيقة تاريخية يقيد فيها مايفعله الرسول وأتباعه يوماً بيوم أو سنة بعد أخرى، فذلك متوفر في كتب السيرة والحديث"[4].

---

1 - نفسه – ص 179.

2 - دفاع عن القرآن – عبدالرحمن بدوي – ص 125.

3 - نفسه – ص 125.

4 - المستشرقون والقرآن – ص 186.

ويحكم عبد الرحمن بدوي وهو يدافع عن القرآن ضد منتقديه على محاولات المتشرقين بترتيب القرآن حسب النزول بالتهافت حيث يقول: "ولكنها تعتبر محاولات يشوبها الفشل"[1]

وواجه الباحث **محمد شعباني** هذه الدعوة الاستشراقية الخطيرة في مقدمة تحقيق كتاب البرهان لابن الزبير الغرناطي موضحاً أن ترتيب السور توقيفي على ما يقرره الجمهور، وأن احترام قدسية الوضع المأثور يقضي بالمحافظة على النسق القائم الآن في الآيات والسور، وأن تغيير الترتيب يفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة، فيغري بعض المتطفلين على القرآن فيطالبون بإعادة ترتيب الآيات حسب نزولها، وفي ذلك من التحريف والتشويه لنظم القرآن، وإفساد لحسن ترتيبه ورصف آياته وكلماته ما لا يقول به إلا جاهل ببيان القرآن وإعجازه، أو ماكر يريد أن يأتي على بنيان الإسلام من أركانه"[2].

والمؤكد أن ترتيب القرآن في المصحف على غير سبب النزول لم يكن ليتعارض مع تلمس سبب النزول، بل كان السلف الصالح يجمعون بين السبب التاريخي والسياق الأدبي، فما أغفلوا حقائق التاريخ في اشتراط الزمان لمعرفة سبب النزول، ولا أغفلوا التناسق الفني حين استبعدوا فكرة الزمان لمراعاة السياق، يقول فاندي: " فالترتيب التاريخي في معالجة القرآن لواقع عصر النبوة وقضاياه التي هي نواة الاستنباطات التشريعية اللاحقة فهو منظور فيه الإعجاز التشريعي، و ترتيب المصحف يُراعى فيه الانسجام النصي وهو منظورٌ فيه الإعجاز البياني"[3].

---

1 - دفاع عن القرآن – ص 126.

2- البرهان في ترتيب سور القرآن –ابن الزبير الغرناطي- تحقيق: محمد شعباني –(1990/1410) مقدمة التحقيق- ص66-76 بتصرف

3- مجلة الدعوة الإسلامية –العدد 16- 1999م –الوحدة المعنوية في القرآن- سعيد سالم فاندي –ص 347.

وإذا كان المستشرقون قد انساقوا إلى مجانبة الموضوعية في دراستهم للإسلام وكتابه المقدس مدفوعين بخلفيات فكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والإسلام فإن الأغرب أن ينساق كتّاب ومفكرون مسلمون وراء هذه الدعوة الباطلة، متأثرين بالدراسات الاستشراقية منادين بإعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها بدعوى " أن ترتيب القرآن بوضعه الحالي يبلبل الأفكار ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن"[1]

وهذه الأصداء الاستشراقية أفرزت مجموعة من الكتّاب والمفكرين العرب الذين نادوا بإعادة ترتيب المصحف على حسب أسباب النزول، وذلك بدافع التأثر بالدراسات الاستشراقية من جهة، وبدافع الاجتهاد والتجديد في البحث والدراسة من جهة أخرى.

فقد زعم بعض أعلام التفسير الموضوعي من المفكرين المسلمين أن التعرض لتفسير القرآن بترتيبه المعهود في المصحف لا يفي بغرض المفسر، وطالبوا بإعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها ابتداءً بسورة العلق، وانتهاءً بسورة النصر وعلى رأس هؤلاء الأعلام أمين الخولي، الذي ذهب إلى أن " صواب الرأي – فيما يبدو – أن يُفسر القرآن موضوعاً موضوعاً، لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف سوراً أو قطعاً"2.

وقد اعتمد أمين الخولي على فكرة ظهرت عند المستشرقين مؤداها أنه لا يمكن لأية دراسة أدبية للقرآن أن تكون مرضية إلا إذا توخت أن تتبع في المصحف المراحل المختلفة لدعوة محمد.

وصرح الخولي بهذه الفكرة حيث قال: "إن تفسير القرآن على ترتيب سوره لا يساير حاجات مفسره المتفهم له، بل يقضي ما كان من أمر الترتيب بالنظر الجديد والترتيب

1- المجمع الصوتي للقرآن الكريم –ابيب السعيد- بيروت –دار المعارف –ط ثانية -1978م –ص 359.

2 - التفسير القرآني –بيروت –دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة -1982م –ص85.

الخاص لآي الموضوع الواحد، بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن النواحي التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر إلى مراعاتها وتقديرها توصلاً إلى الفهم الصحيح والمعنى الدقيق"[1].

ويرى أنصار الخولي أن هذه الفكرة ليس فيها مساس بقدسية النص القرآني؛ لأنه وإن دعا إلى التفسير وفق أسباب النزول ومراعاة للسياق التاريخي، فإن هذا لا يعني رفض ترتيب الآيات على ما هي عليه في المصحف؛ لأنه يبحث في مجال التفسير لا القراءات القرآنية.

ويبدي الخولي رأيه في الترتيب المعهود للمصحف فيقول: "إن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع، ولم يلتزمها مطلقاً، وذلك كله يقتضي في وضوح أن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً، وأن تُجمع آيه الخاصة بالموضوع الواحد حيث يقول: "جمعاً إحصائياً مستقصى، ويُعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ثم ينظر بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعني وأوثق قي تحديد"[2].

ويبرر هذا المنهج بأن الموضوعات وردت مبثوثة في العديد من السور، ولكي نصل إلى فهم مراد الله من خلال تلك الآيات علينا أن نجمع الآيات ذات الموضوع الواحد " ليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضا مفرقاً لموضوعات مختلفة تضمها السورة الواحدة ثم يعود المفسر بعد ذلك في السورة الأخرى إلى مثل هذه الموضوعات"[3].

ويمكن القول إن هذا المسلك الذي دعا إليه الخولي ومن سار على نهجه لاينا في المنهج الصحيح في التفسير إذا ما روعي نسق السورة.

وإذا كان أمين الخولي قد دعا إلى اتباع تاريخ النزول في التفسير، وجمع الآيات المتفقة في موضوع واحد وتفسيرها، فإن ذلك لا يكون مثمراً إلا إذا كان في نطاق ترتيب

---

1 -التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره -أمين الخولي -بيروت -دار الكتاب اللبناني -1982م -ص 83.

2 - نفسه -ص 83.

3 - نفسه -ص 83.

المصحف للآيات، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً في ضوء نسقه المسطر في المصحف، وليس على ترتيب تاريخي أو ذهني.

وقد سارت عائشة عبد الرحمن (**بنت الشاطئ**) على منوال أستاذها الخولي فنادت بالفكرة نفسها.

وباستقراء **بنت الشاطئ** لدلالات الألفاظ الواردة في الآيات القرآنية عملت على ترتيب هذه الآيات حسب تاريخ النزول، ومن أمثله ذلك قوله تعالى ﴿خلق الإنسان من علق﴾ العلق (2)، تقول: "فهذا الإنسان الذي خلقه الله من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم، وإليه رجعاه هو الإنسان الذي نزلت في خلقه آياته تعالى على ترتيب النزول"[1]

تم ذكرت الآيات الكريمة التي تحدثت عن خلق الإنسان مرتبة إياها حسب ترتيب النزول على رأيها.

وفي نفي القرآن صفة الشعر عن النبي الكريم قامت بترتيب الآيات النازلة في هذه المسألة بحسب النزول ابتداء بالآيات المكية ومنها قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ يس 69.

ثم سردت بقية الآيات التي تتحدث عن الموضوع نفسه.

ووفقاً للمنهج الذي اختارته بنت الشاطئ استعانت بآراء المفسرين في أسباب النزول، وحاولت توظيف هذه الآراء في تفسيرها، من ذلك قولها عن تعرضها لتفسير سورة التكاثر: -" السورة مكية بلا خلاف، وهي السادسة عشرة في ترتيب النزول على المشهور، نزلت بعد الكوثر، ولا يخطئ الحس فيها سيطرة جو الوعيد والإنذار، يعمد فيها البيان القرآني إلى الإيجاز الحاسم، مع التأكيد الجازم تقوية للردع وبلاغاً للوعيد"2.

1- التفسير البياني -مصر -دار المعارف -ط خامسة -1990م- 19/2.

2 - التفسير البياني -195/1 -ط سابعة.

ولم تقبل رأي بعض المفسرين الذين ربطوا سورة التكاثر بسورة القارعة قبلها، حيث تقول: " وقد ربطها بعض المفسرين كالنيسابوري بسورة القارعة لكن التكاثر نزلت قبل القارعة بثلاث عشرة سورة، فلا وجه لربطها إلا أن يكون ملحوظاً في المصحف تشابه الجو الإنذاري المسيطر على السورتين كلتيهما، ولا تنفردان بذلك بل تشاركهما فيه سور وآيات كثيرة"[1].

من خلال هذه الأمثلة يمكن القول إن وحدة الموضوع كانت المحور الرئيسي في منهج الخولي ومن بعده تلميذته بنت الشاطئ، وهذا المحور يقتضي مراعاة السياق العام في تفسير النص القرآني من المنظور الأدبي ولكنهما لم يهتما بمراعاة النسق بين الآيات والسور؛ لانشغالهما بوحدة الموضوع، والحق أن ماصاغاه كان بدافع الحرص على التعمق في استكشاف المعاني القرآنية باستخدام وحدة الموضوع، ولكنه اتفق مع قول كثير من المستشرقين، وصادف هوىً في نفوس كثير من المتطفلين على القرآن؛ لأن طلب إعادة ترتيب موضوعات كتاب ما من أجل استجلاء معانيها هو طعن في منهج هذا الكتاب.

ومع أننا نبرئ ساحة الخولي وتلميذته من هذا الاتهام فإننا نرى أن المناداة بالمنهج الموضوعي في تفسير القرآن يجب ألا يكون على حساب انتظام الآيات القرآنية في سورها؛ لأن لهذا الترتيب دلالته الفنية المعبرة عن الوحدة المعنوية.

كما نرى أن المنهج السوي هو أن ينظر المفسر للآية إلى مثيلاتها من الآيات، ويتخلى عن ذلك التبويب الجديد الذي يفتح باب الطعن في كتاب تعهد الله بحفظ حروفه ونظمه وترتيبه ومقاصده.

وقد افترض الباحث محمد شعباني حسن النية عند بعض أصحاب هذا المنهج فقال في مقدمة تحقيق كتاب البرهان: "وإذا كانت مقاصد هؤلاء تختلف، فمنهم من يفعل ذلك آخذاً في الحسبان التدرج التشريعي الذي روعي في التزول، ومنهم من فعل ذلك لينأى بالشباب

---

1 - المرجع نفسه 1/195.

عن المنهج التقليدي، ولكن تبقى كل هذه التبريرات ضعيفة لتغيير ترتيب كتاب مقدس نقل إلينا بالتواتر جيلاً بعد جيل"[1].

ويبدو أن بنت الشاطئ أدركت وهي تفسر القرآن وفق منهج أستاذها أن من مقتضيات مراعاة السياق العام هو العناية بترتيب الآيات في السورة الواحدة وإدراك العلاقة بينها، وكذلك بين السورة وسابقتها ولاحقتها من السور، فاقتربت من حقيقة تفسيرية أدركها الأسلوبيون أكثر من المفسرين، وهي أن وحدة الموضوع تقتضي الوحدة المعنوية إذا كان تركيب النص يدخل في دائرة الإبداع البشري، فما بالك وهو في أفق الإعجاز الإلهي العظيم.

وقد كان لبنت الشاطئ في مجال التطبيق عناية بالوحدة المعنوية في السورة الواحدة بين الآيات، كما اعتنت في مواضع بتلك الوحدة بين بعض السور، ولا غرابة في ذلك فقد يتدارك التلميذ على أستاذه، والمطبق على المنظر.[2]

ومن أمثلة إبرازها للصلة المعنوية بين آيتين ما ورد في تفسيرها لسورة الضحى، وبيان سر اتصال الضحى بالليل فيها "إن في الضحى تقوى به الحياة، وتنمو الناميات، وفي الليل تستريح فيه القوى، وتستعد فيه النفوس"[3]

وتبرز العلاقة بين الآيات الثلاث الأخيرة من السورة نفسها فتقول: "وقد نرى في ترتيب الآيات أنه تعالى نبّه رسوله الكريم إلى أن إصلاح الجماعة يأتي في المنزلة الأولى... أن تدفع ذل الفاقدين، وقهر اليتامى، وحيرة السائلين"[4]

---

1 - مقدمة كتاب البرهان –ص66.

2 - الإعجاز البياني في دراسات بنت الشاطئ – مريم الرقيق – رسالة ماجستير مرقونة – جامعة السابع من أبر يل – ص 162.

3- التفسير البياني – 1 / 27.

4- المرجع نفسه – 1 / 54.

كما كانت حريصة على الربط بين أول السورة وآخرها لما في ذلك من استجلاء للترابط المعنوي بين أجزاء السورة الواحدة.[1]

كما اهتمت بإبراز العلاقة بين السورة والتي تليها في ترتيب المصحف تقول في صدر تفسيرها لسورة الشرح: "واقترنت بها في رواية تقول إن الضحى والشرح سورة واحدة لما يبدو من المناسبة في سياق تعديد النعم"[2]

وهكذا يتضح من خلال هذه الأمثلة أن بنت الشاطئ متمسكة بالوحدة المعنوية بين الآيات والسور، وملتزمة أحياناً بالتفسير حسب ترتيب الآيات في سورها، لكنها مراعاة لمشاعر خاصة وتوقير باطن لشيخها وزوجها لم تصرح بذلك، وإن دل عليه عملها في التفسير.

وقد كان المتوقع من بنت الشاطئ وأستاذها الخولي — وهما أديبان يدرسان النص القرآني من الوجهة الأدبية البيانية — أن يهتما بترتيب المصحف أكثر من اهتمامها بترتيب التاريخ النزولي ؛ لأن ترتيب المصحف يحقق لكل أديب استجلاء الوجوه البيانية في القرآن ولكن رغبتهما في التجديد، وتأثرهما بالمستشرقين هو الذي فارق بينهما وبين هذا السبيل.

وقد سار على منهج الخولي عدد من المفسرين أمثال محمد عزة دروزة الذي صنف تفسيراً رتب فيه السور على ترتيبها في النزول، معللاً ذلك بأن التفسير ليس مصحفاً للتلاوة، وأنه عمل فني أو علمي لا صلة له بترتيب المصحف، وليس من شأنه أن يمس قدسية ترتيبه.[3]

كما سار على هذا المنوال عفت الشرقاوي.[4]

---

1 - المرجع نفسه — 1 / 162

2 - المرجع نفسه — 1 / 57.

3 - أنظر: مقدمة التفسير الحديث —دار إحياء الكتب العربية -1962 —ص5.

4 - أنظر: قضايا إنسانية في أعمال المفسرين —بيروت —دار النهضة العربية -1980م —ص 106.

ومن الذين نادوا بالمنهج الموضوعي وإعادة ترتيب المصحف وفق أسباب النزول **يوسف راشد** الذي تقدم برسالة تحت عنوان "رتبوا القرآن كما أنزله الله" يزعم فيها أن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن ؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي روعي في النزول، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة؛ لأن القارئ إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه"1.

وفي ختام هذا البحث يمكن أن تصل إلى نتيجتين:

أولاهما: إذا كان الغرض من التفسير الموضوعي هو جمع الآيات ذات المعنى المشترك، والاستعانة بها في التفسير دون المساس بقدسية المصحف وترتيبه، فهذا شأن علمي وعملي رصين لا اعتراض عليه و لا مجال للطعن فيه؛ لأنه يتفق مع القاعدة التي تقول: "إن القرآن يفسر بعضه بعضاً".

الأخرى: أما إذا كان الغرض هو المطالبة بإعادة ترتيب الآيات والسور حسب نزولها، وتفكيك الوحدة المعنوية للقرآن نتاج صيحات استشراقية حاقدة على الكتاب المنزل والنبي المنزل عليه، وفيها من التحريف والتشويه لنظم القرآن وفساد بيانه، والقضاء على إعجازه فهذا ما لا يقبله المسلمون لكتابهم المقدس الذي تعهد الله بحفظه، وهو تكلف لا يليق يُصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه.

---

1 - أنظر: تفصيل ذلك في: الجمع الصوتي للقرآن الكريم -لبيب السعيد -ص 359..